

المنهج الفينومينولوجي الحقيقة والأبعاد

الأستاذ عبدالقادر بوعرفة

رئيس قسم الفلسفة - وهران
الجزائر

توطئة :

لم يستطع العقل الوصول إلى تشكيل المعرفة إلا بواسطة إبداع آليات إنتاج المعرفة، والتي تشكلت كمناهج تعصم عند مراعاة قواعدها الفكر من الوقوع في المغالطات والتناقضات والوصول إلى إصدار أحكام .

والمنهج ارتبط بحضوره في أغلب الأحيان بالنسقية، التي جعلت أحياناً علاقة الذات بالموضوع تتسم بالتعالى المفراط ، فالموضوع لا ينبغي أن يرتقى إلى مستوى الذات العارفة .

أو تجعل الموضوع أكثر أهمية من الذات ، باعتبار أن الحقيقة ليس كما تعتقد الذات العارفة وإنما الحقيقة تكمن في الموضوع وتصبح الذات مجرد مرآة تعكس حقيقة الموضوع وفق آليات المنهج .

وبقى الصراع بين المدرسة التجريبية وأنصار العقلانية الديكارتية مستعراً في الفكر الأوربي ، ولم يكن الخلاف بينهم حول موضوع المعرفة وإنما كان الخلاف الجوهرى حول مشروعية المنهج الذى يوصلنا إلى المعرفة .

إن إشكالية فصل الذات عن الموضوع ، لم تخرج عن منطق السجال إلا مع ظهور الفينومينولوجية، والتي قدمت منهاجاً قائماً على قلب الكوجيتو الديكارتى، فبدل أنا أفكر إذن أنا موجود ، يصبح المبدأ الفينومينولوجى أنا أفكر إذن أنا المفكر فيه (Ego Cogito Cogitatum) (1) .

ومن خلال دراسة أعمال كل من هوسرل وميرولو بونتي وغادامير، نكتشف بنية المنهج الجديد الذى يقوم على الأسس التالية :

1 - لا يوجد موضوع خارج ما أفكر فيه ولا يمكن أن أفكر فى موضوع خارج بؤرة الذات .

2 - ضرورة بناء السؤال ضمن مقولة الشئ فى ذاته ، واختزال مقولة الشئ فى ذاته ولذاته .

3 - وعى السؤال فى حقله الثلاثة : الماضى ، الحاضر، الماضى + الحاضر .

4 - الانتقال من أفق السؤال إلى فينومينولوجية التأويل (اللغة - الجمال - المنطق) .

5 - الانتقال من جاذبية التفكير إلى قصديته ، أى عدم فصل العملية الشعورية عن المدركات .

6 - التعالى الإيجابى .

إن الغاية من المنهج الفينومينولوجى هى إدراك العلاقة بين الذات والموضوع، والتي تتحدد وفق قصدية الذات ، لأن المناهج التقليدية لم تعط للموضوع المدرك القيمة التى يحتلها كطرف فى حقل المعرفة، إن المنهج الفينومينولوجى هو تركيب بين المنطق الهيجلى الأكثر حركية وتدافعا بين عناصر الموضوع، والمذهب الوجودى الأكثر ثورة على الأنساق القديم (2) .

ومن خلال ما سبق فإن الأسئلة التى تفرض نفسها تتبلور على الشكل التالى :

- لما ظهر المنهج الفينومينولوجى؟ ما خصائصه؟ ما حدوده؟ هل هو منهج

للمنهج أم منهج للمعرفة؟ وهل يمكن اعتبار المنهج الفينومينولوجى المنهج الذى مكّن

العلوم الإنسانية من التمتع فى عصر تنوع مناهج العلوم؟

الفينومينولوجية لحظة الانبثاق :

ما الفينومينولوجية ؟

يحدد علماء المنهج كون علم الظواهر علمان * ، علم يدرس الظواهر من حيث

اقترانها بأسباب حدوثها ، ويخلص إلى تحديد العلاقة المبنية على أساس العلة

والمعلول، يستمد شرعية نتائجها غالبا من التجربة والاختبار وفق القواعد التى وضعها

كل من فرانسيس بيكون وجون ستوارت ميل ، وهو ما يعرف لدى العام والخاص

بالمذهب التجريبي الذي يحاول أن يفصل الموضوع عن الذات العارفة إذ يصبح الموضوع هو أصل الحقيقة (المعرفة يعكسها موضوعها) .

وعلم يدرس الظواهر كما هي عليه في الزمان والمكان دون فصل الذات عن الموضوع أو إقصاء الأحوال الشعورية النفسية عن موضوع المعرفة .
وعلم الظواهر يتخذ ثلاثة أشكال رئيسية :

1 - دراسة الظواهر النفسية من خلال علاقة الأنا بأحوالها الشعورية، ويرتبط بمبدأين:

أ - ملاحظة المعطيات النفسية من خلال أعراضها .

ب - وصف الأحوال الشعورية وصفا دقيقا مستقلا عن كل قصد أو تصور أو حكم سابق عنه .

2 - علم دراسة ظواهر الوجود.

ويختص بدراسة بنية الظاهرة من أجل معرفة شروط ظهورها أو حدوثها أو وقوعها ، ويرتكز على مبدأين :

أ - دراسة وصفية تحليلية .

ب - تفسير تكون الظاهرة وتبيان ماهيتها .

3 - علم الظواهر المتعالى .

وهو العلم الذي سيطر على الساحة الفلسفية ، وتمخض عنه المذهب الفينومينولوجي والذي يعود الفضل في إرساء قواعده وتحديد منهجه إلى الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل والظواهر لم تكن علما منفصلا عن السياقات العلمية الأخرى بينما هي استمرارية للفكر الغربي ، وهوسرل يجعل رونييه ديكارت معلما من خلال كتابه (تأملات) ، يقول هوسرل : «فالاندفاعات الجديدة التي تلقتها الفينومينولوجيا إنما تدين لروني ديكارت أعظم مفكرى فرنسا فلقد تحولت الفينومينولوجيا الناشئة بفضل دراسة (تأملات) ديكارت إلى نموذج جديد للفلسفة المتعالية،⁽³⁾ . ودون أن ننسى دور هيغل من خلال كتابه (فينومينولوجيا الروح) .

ما الظواهرية ؟

الظواهرية هي علم وصف الظاهرة وصفا مستقلا عن الوسائط المادية التجريبية، إذ يعتمد على تحليل الظاهرة تحليلا عقليا، مبنيا على القصديّة في الشعور، مرتكزا على التتالي في عملية التحليل، كما أنه يتحدد بدور الشعور المحض أو الخالص (Phinominologi De Lesprit).

والتي يريد من ورائها إثبات كيفية انتقال الصورة من المعرفة السطحية الحسية إلى المعرفة المجردة التي تتعالى في مراتبها ومنازلها إلى أن تتحد مع المطلق الذي يخترن في جوهره الحقيقة.

وكما جاء في الموسوعة العلمية : «الفينومينولوجية تتعلق عموما بدراسة وصفية أولية للمعطى الظاهراتي، لأجل تشكيل صورة مجردة، وهذه الوصفية ترتبط بضرورة تحديد الشروط العامة للظاهرة باعتبارها نفسها تمثل بعدا جوهريا للكائن» (4).

ونتيجة انتشار الفينومينولوجية في الأوساط الفكرية فقد أثرت في كثير من انتيارات الفلسفية والأدبية كالوجودية، فنكون ما يعرف باسم بعلم الظواهر الوجودي (Phinominologie) ويتمثل في استعمال منهج يعمل على وصف ما يحيط بالذات من شروط واقعية تحدد وجوده العيني أو ما سواه.

المنطق والفينومينولوجيا :

أعمال هوسرل الأولى كانت ذات طبيعة رياضية ومنطقية، فأول مؤلفاته كانت تحت عنوان (فلسفة الحساب)، والتي تعرض فيها لأهم المشاكل التي عرفتتها الرياضيات المعاصرة، غير أن الكتاب لم يكن له دور فعال في بلورة المنهج الفينومينولوجي عند هوسرل، لكن كتابه الموسوم (Prillgomeno Zur Sein Enlogik) المترجم بدراسة في المنطق (1900-1901)، والذي تعرض فيه بالخصوص إلى أسس المنطق مع نقد المذهب النفساني، يعد أولى إرماصات الظواهرية.

لكن كتابه الثالث الموسوم بأفكار نحو الفينومينولوجيا (Idenizu Emin

(Seinen Phanen) يُعدُّ المؤسس الفعلي للمذهب الفينومينولوجي . والذي حاول من خلاله الوصول إلى النقاط التالية :

1 - إخضاع كل المعرفة إلى الفلسفة وبالتالي تصبح الفينومينولوجيا (فلسفة أولى) ،
ينعكس من خلالها تعالى الذات العارفة ، ويتخذ الكوجيتو الديكارتي معنى
جديداً، يكون على النحو التالي : أنا أفكر إذن أنا المفكر فيه .

2 - أن يكون للرياضيات دور منهجي في المعرفة من خلال دراستها دراسة فلسفية
بحيث نقودنا إلى بلورة منهج موضوعي عقلاني، وقد قاده منهجه إلى نزوع
مثالي ومكنه من جهة أخرى من دراسة الوعي .

وقد استطاع هوسرل أن يجد لفلسفته تأثيراً في كثير من الفلسفات والاتجاهات
الفكرية المعاصرة ، فلقد كانت التحليلات الفلسفية التي يحملها كتابه (أبحاث منطقية)
- وجهه نقدي - ضربة كبرى للمذهبين الذين كان لهما حضوراً متميزاً في أوروبا
المذهب الوضعي والإسمي (5) .

وفي كتابه أبحاث منطقية وجه الانتقادات التالية للمناطق :

- 1 - المنطق ليس علم القواعد.
- 2 - القانون ليس تعميماً للجزئيات الناتجة عن عملية الاستقراء .
- 3 - إن التجربة ليست معيار صحة الأفكار .
- 4 - لا يمكن فصل الذات عن الموضوع .
- 5 - لا يمكن فصل الموضوع عن ماهيته ، من منطلق أن الفينومينولوجية هي فلسفة
الماهية .

نقد المذهب النفسي :

يجزم أغلب من أرخوا لتاريخ الفكر الفلسفي أن مصطلح الفينومينولوجيا عرف
في الفلسفة الكلاسيكية كمصطلح تابع للدراسات النفسية ، ويعطى ارتباط الموضوع
بملكة الإحساس غير الوهمي ارتباطاً يؤدي إلى تظهره تظهراً يحقق الموضوعية (6) .
ومن ناحية أخرى يعترف هوسرل لعالم النفس فرانز برونتو بالفضل في ميلاد
المذهب الظاهري من خلال أعماله حول الظواهر السيكلوجية ، والذي نبه إلى

ضرورة فهم الظاهرة النفسية انطلاقاً من النية . المعرفة هي دائماً نية موجهة نحو الموضوع،⁽⁷⁾ وهو نفسه القائل : «الوعي هو دوماً وعى بعض الأشياء»⁽⁸⁾ .

لكن رغم هذا التأثير فقد وجه مؤسس الظواهرية نقداً للمذهب النفسى من خلال المنهج المتبع ، الذى يرى فيه انزلاقاً نحو المذهب الإسمى والوضعى، كما أراد أن يعطى للوعى الإنسانى مكانته بعيداً عن النظرة المكبلة له ضمن أطر الأحاسيس والانطباعات : يقول عبدالفتاح إمام : «إن القيام ضد النزعة السيكلوجية عند هوسرل كان يتجه أساساً ضمن إدراج الوعى ضمن كائنات الطبيعة، بيد أنه كان يريد أن يصون الذات ويحفظها فى صميمها داخل المثالية الترنسندنتالية»⁽⁹⁾ .

إن المقولة التالية لهوسرل تبين قيمة الشعور اللامحصور ، بل الذى يحدده الوعى القصدى، «كل شعور هو شعور * إذا حاول الوعى أن يعود إلى ذاته ويتحد معها وينغلق على نفسه إنعدم»⁽¹⁰⁾ .

نقد المنهج الإسمى :

المنطق سابق فى وجوده على علم النفس ، ولا يمكن أن يكون المنطق فرعاً من فروع علم النفس⁽¹¹⁾ .

إن افتراض المنطق فرع من علم النفس يجعلنا نسلم باحتمالية المعيار المنطقى، مقارنة باحتمال المعيار النفسى ، وعندئذ تصبح كل الأحكام ذاتية، وهذا يجعلنا نغير إنتاج معارفنا من جديد، خاصة تلك التى أصبحت من انبديهيات والمسلمات .

أسس المنهج الظواهرى :

تشكلت الفينومينولوجية كمنهج ومذهب بعد توفر جملة من الأسس التى بفضلها انبلجت إلى الوجود كفلسفة قائمة بذاتها ، وتلك الأسس يمكن أن نورد على النحو التالى:

1 - نظرية المعنى :

ترى أن الدلالات لا يشكلها الحد المنطقى كما ذهب إلى ذلك أنصار المنطق

الصوري، بل الذى يبلور المعنى الإدراك للاسم أو الموضوع ، يقول بوخينسكى : «وهذا النقد يعد أساسا للقول بأن المنطق ميدانه الخاص الذى ينحصر فى إعطاء المدلولات ، فباننا عند إدراكنا لمعنى اسم أو موضوع فإن الذى يعنيه حد منطقى أو آخر لا يمكن أن يعد أبدا جزءا من قوة الإدراك نفسها بل مجرد دلالة عن ذلك الإسم أو الموضوع، وفى مقابل الاختلاف واللامتناهى للتجارب الفردية يوجد على الدوام ما نعبر عن هذه التجارب فى حد ذاتها (12) .»

إن نظرية المعنى عند هوسرل تحاول أن تفصل المعنى عن الحد المنطقى* ، وترتبط المعنى مباشرة بالإدراك الخاص بحالة الشعور القصدى ، فإدراكى لمعنى الشجرة مثلا لا يمكن فى الحد المنطقى الذى يعبر عن صيغة التجريد، بل يمكن معناها فى ما تحمله الشجرة من مدركات فى شعورى الخالص، وفيما تصفيه الذات الشاعرة على الموضوع (الشجرة) من صفات وأحكام .

ومن خلال عملية الوصف (المينو) يتحدد ما يلى :

- تحديد الكيفية التى تتم بها عملية إدراك معنى وماهية الموضوع من خلال إسقاط الإدراكات التى تتجه إلى ما لا إدراك ، يقين يودى إلى إثبات الموضوع على النحو الذى أدركه عليه . أو من خلال عدم إثبات الصفات عن الموضوع، أو من خلال إدراك اعتقاد ما ، والتى تتجه فيه العلاقة بين الذات والموضوع إلى إعادة ترهين الدوغما .

- تحديد معنى الإدراك وماهيته ، والتى تحاول دوما الوصول إلى ماهية الموضوع باعتبار المذهب الفينومينولوجية يقصد التمكين لفلسفة الماهية، والتى لا يمكن لها إلا بثلاث حركات ، هى على النحو التالى :

1 - تحديد قضية أو حكم يصبح قابلا أن يكون موضوعا للإدراك .

2 - الشك فى ماهية الموضوع الأولى من حيث : الصورة، الغاية، الصدق.

3 - إعادة بناء الإدراك الجديد، لأجل إثبات صواب الموضوع أو خطئه .

إن هذه الحركات الثلاث يمكن أن تعطى للتجريد بعدا فينومينولوجيا إذا ما

استطاع العقل أن يميز بين المعنى المنطقي والمعنى الفينومينولوجي .

وحاول هوسرل أن يربط النحو بعملية إدراك المعنى، وخاصة علم اللغة المتخصص في قضايا الدال والمدلول ، ويبحث في تطور مدلولات الكلام - أي السيمنتكية .

2 - القصدية (نظرية القصد) :

منذ البداية لا بد من الاعتراف أن هوسرل ركز في العملية المعرفية على القصد أو النية باعتباره موجه عملية الإدراك ، ومن ناحية أخرى لا نقل عن الأولى من حيث الأهمية أن هوسرل يجعل كل ما هو موجود موضوعا للتأمل الفينومينولوجي، وأن الوعي الخالص يلزم بالضرورة ماهية الموجود . ذلك أن الموضوع لا يعرف التعالى إلا من خلال وعيه لَكُنْه الذات الذي يمثل قطبين ، قطب كونه موضوعا يستمد من تجربتي وجوده ، وقُطْب لكونه موضوعا أساسيا للوعي الخالص (13) .

وعندئذ يصبح الوعي الخالص مطلب الذات العارفة التي تريد أن تصل إلى ماهية الموجود، لكن كيف يمكن أن نصل إلى استحضار الوعي الخالص داخل بؤرة شعورنا ؟؟

الوعي الخالص عند هوسرل يكمن فقط في وجود القصدية أو النية، وفكرة القصد كإيجابية وليست ضيقة كما تتجلى في النص الديني على العموم - تتخذ طابعا أخلاقيا وليس معرفيا - إذن فنظرية القصد تتجه نحو البعد المعرفي وتتخذ طابعا عقليا صرفا

والنية تقاسم عند هوسرل من خلال سلسلة التجارب التي مرت بها الذات العارفة من خلال لحظة فلسفية تمت نتيجة شعور بموضوع معين ، عندئذ تحضر الرغبة في معرفة الموضوع من خلال التجربة القصدية المرتبط بقصدية، يقول هوسرل :

« إن الشعور بشئ لا يعنى أن نفرغ الشعور من هذا الشيء بل أن نجعله يتجه إليه، حيث أن كل الظواهر لها تكوينها القصدى الذى يوجه الإدراك نحوها تلقائيا، (14) .

3 - نظرية الحصر :

يرفض هوسرل الشك الديكارتي كمنهج لمعرفة ماهية الموضوع ، ويرى أن الشك هو نفسه عملية يصدر من خلالها حكم على الموضوع المقصود في ذاته ، وبالتالي لا يمكن أن يحقق معرفة بإصدار حكم على حكم ، وعليه فإن المنهج الفينومينولوجي يخلصنا من عملية إصدار الأحكام نتيجة ميله في لحظات الوعي الخالص إلى التعالي ، ونقصد بذلك أن الإدراك المرتبط بالوعي الخالص والمسبح بالقصدية يجنح إلى مرحلة الحصر والإقصاء ، بمعنى آخر هو رفض الأحكام أو على الأقل التوقف عن إصدار الأحكام ريثما يتجلى الوعي الخالص .

ونظرية الحصر عند هوسرل تحاول أن تعطى للذات العارفة لحظة مثالية لأجل تأمل الموضوع تأملا وصفيا ماهويا ، مع توفير شروط إدراك الموضوع من خلال ربطه بالأحوال النفسية للذات التي تتحدد وفق تفاعلات الذات مع أحوالها الشعورية . إن لحظة التوقف عن إصدار الأحكام مرتبطة بلحظة تاريخية وهي لحظة الإطلاع على الأحكام والآراء التي أطلقتها المذاهب والمدارس على الظاهرة التي هي بالضرورة موضوع اللحظة التأملية .

إن من شروط الفيلسوف وفق معايير المذهب الفينومينولوجي التوقف عن إصدار الأحكام ، لأن المنهج الفينومينولوجي لا يهيمه الحكم في ذاته ، بل يهيمه كيف استطاع المتأمل أن يصل إلى ماهية وكنه الموضوع .

وعملية الحصر أو التعالي تمر بالمراحل التالية :

- إقصاء الحكم القبلي والجاهز عن الموضوع .

- حصر الماهية . ويعزل التفرد والوجود تكون قد قمنا بعملية تحديد لجميع علوم الطبيعة وعلوم الذات ، وكذلك تكون قد قمنا بتجريد تجارب هذه العلوم وفرضياتها ، (15) .

التركيب بين عملية الإقصاء والنية :

إن الإقصاء والتعالي يؤدي إلى حتمية وجود نية وقصد حيال الموضوع ، وعندما نصل إلى أعلى درجات الوعي الخالص فإن الحقيقة تنبج على أنها تيار من التجارب

المتعاقبة على الشعور، عندئذ تتمظهر أفعال مجردة، ولعل هذا ما أراده كانط في قوله
«فإن الظواهر لا بد أن تخضع لتصوير الاشتراك (الأثر المتبادل) ، وهكذا تكون
المبادئ القبلية أساس الأحكام الصحيحة موضوعيا مع أنها أحكام تجريبية،»⁽¹⁶⁾
الرعى الخالص لا يعد أفعالا غرضية ، لأن الموضوع ليس سوى معطى خاص
لهذا المحمول المنطقي⁽¹⁷⁾ .

والموضوع الغرضي يتشكل من التفاعل الناتج بين المادة المحسوسة (HYIE)
وبين الهيئة المقصودة (MORPHE) يوجد عنصر نشيط يوقط العلاقة بين N,H
يتمثل في (NOESE) .

إن المنهج الينومينولوجى حاول من خلال فلسفة أنصار مذهب الماهية أن يحقق
مساءلة فلسفية خالصة ، تتمثل في استنفاد التجربة الغرضية من لحظات التأمل
الخالص لجملة التجارب المرتبط بالأحوال الشعورية، فيصبح بموجب هذا الاستنفاد
المحمول مرتبطا بالموضوع ، والموضوع معطى أساسيا للمحمول الخالص .

إن الحقيقة عند الينومينولوجيين ليست شيئا مستقلا ، فهي مجرد ظاهرة مجردة
- موجود ما - والظاهرة ما هي آخر الأمر مشروع نية وعى خالص .
وعليه قيل : «الظواهرية مذهب الحقيقة،»⁽¹⁸⁾ .

الإحالات والهوامش

- (1) Lyotard Jean-Francois La Phenomenologie - Presses Universitaires - Paris 0 1961/0. 33-34-325.
- (2) Ibid., p. 42.
- (3) نقلا عن : ربيع ، ميمون ، نظرية القيم فى الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1980 ، ص 131 .
- (4) Encyclopedie Microsoft Encarta 99. C. 1993/1998.
- (5) بوخينسكى ، تاريخ الفلسفة المعاصرة فى أوربا ، ترجمة عبدالكريم الوافى ، مكتبة الفرجانى ، ليبيا ، 19 ، ص 212 .
- (6) Chatelet-Fracois- La Philosophie De Kant Ahusserl Marabout Universite - Tome 3-Paris 1973, p. 289/290.
- (7) Encyclopedie Microsoft Rencarta 99. C. 1993/1998.
- (8) Encyclopedie Microsoft Rencarta 99. C. 1993/1998.
- (9) إمام ، عبدالفتاح ، كيركارد راند الوجودية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1986 ، ص 29 .
- (10) المرجع نفسه ، ص 12 .
- (11) بوخينسكى ، تاريخ الفلسفة المعاصرة فى أوربا ، ص 211 .
- (12) المرجع نفسه ، ص 214 .
- (13) Lyotard Jean-Francois La Phenomenologie Universitaires Paris- 1961/p. 54.
- (14) إمام ، عبدالفتاح ، كيركارد راند الوجودية ، ص 25 .
- (15) بوخينسكى ، تاريخ الفلسفة المعاصرة فى أوربا ، ص 218 .
- (16) كانط ، إيمانويل ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ، نازلى إسماعيل حسين ، ومحمد فتحى الشنيطى ، موفم للنشر ، الجزائر ، 1991 ، ص 74 .
- (17) بوخينسكى ، تاريخ الفلسفة المعاصرة فى أوربا ، ص 220 .
- (18) Chatelet-Fracois- La Philosophie De - Kant. Ahusserl, p. 288.
- * انظر : المعجم الفلسفى ، جميل صليبا ، الجزء الثانى ، الطبعة الثانية ، 1982 ، ص 30/29 .
- * وضعها هوسرل نفسه .